مجلة أبحاث
ISSN: 0834-2170
EISSN2661-734X

المجلد 7 / العـــــــدد: 1 (2022)، ص 72– 81

فاعليّة اللغة بين البنية والوظيفة

–مقاربة لسانية–

language efficacy between structure and function
-Linguistic Approach-

د. الـــــخَـــــــــــثِـــــــــــيـــر داودي المركز الجامعي –عبد الحفيظ بوالصوف– ميلة (الجزائر)-d.khatir@centre-univ-mila.dz

تاريخ الاستلام: 01 /2022/02 تاريخ القبول: 14/ 05 /2022 تاريخ النشر: 2022/6/2

ملخّص

تهدف هذه الورقة العلمية إلى تبيان القيمة العلمية للغة كبنية لسانية انتظامية ذات نسق صوتي، ونسق صرفي، ونسق نحوي، ونسق معجمي، ونسق دلالي، وكذلك تبيان القيمة التواصلية للغة كأداة تبليغ لها وظائف اجتماعية متنوعة، وذلك من خلال مقاربتها بالدراسات اللسانية الحديثة. والنتيجة مفادها أنّ اللغة منظومة وجدانية مركّبة ومعقدة، لتفاعلها مع سائر ملكات الإنسان، ولارتباطها بالمجتمع والثقافة والقيم، فهي كائن حيّ متحرّك له سيطرة غير شعورية على ذهنيّة المتكلم، فهي وسيلة تعبير ومنهج تفكير.

الكلمات المفتاحية: اللغة، البنية، الوظيفة، التحليل، المقاربة.

تصنيف JEL : XN1 ،XN2

Abstract:

This scientific paper aims to show the scientific value for language as a regular lingual structure it has phonemic format, morphological format, grammatical format, lexical format, and semantic format. it also shows the communicative value of language as a communication tool with various social functions, and that through its approach to modern linguistic studies. the result is Language is a complex and complex emotional system. to interact with other human faculties, and its connection with society, culture and values, she is a moving organism he has unconscious control over the speaker's mind. It is a means of expression and method of thinking.

key words: (Language, Structure, Function, Analysis, Approach)

Jel Classification Codes: XN1, XN2.

* المؤلف المرسل

مقدمة :

مازالت أسئلة اللغة متنوعة ومطروحة كما كانت في تاريخ نشأتها، أما في زمن اللسانيات فهي في تعدد فهومها وتنوّع خصائصها ووظائفها، ويبقى القول إنّ اللغة، وهي التي اختلف في تعريفها وتحديدها العلماء والمفكّرون، تبقى من أعقد الأنشطة الإنسانية، وسيبقى الجدال حولها دائرا: (جاك، 2005، صفحة 33)

- هل هي جزء من الطبيعة الإنسانية ركّزها فيها الخالق، أم هل هي كسب إنساني تجريبي ؟
- هل هي نظام هندسي، أم هل هي نبتة تنمو من دون ضابط ؟
- هل هي أداة تواصل، أم هل هي المادّة التي تتشكّل منها النفس الإنسانية ؟
- هل هي وعاء للفكر، أم هل هي الفكر نفسه ؟
- هل يتكلّمها الإنسان، أم هل هي التي تتكلّم الإنسان ؟

وانطلاقا من هذه التساؤلات؛ نحاول في هذه الورقة العلمية مقاربة الآراء والاختلافات لسانيا في هذه العقدة الإنسانية، التي قال عنها اللغوي الفرنسي جوزيف فندريس بأنّها:"مركّب معقّد تمس فروعا من المعرفة مختلفة وتعنى بها طوائف متفرقة من العلماء: فهي فعل فسيولوجي من حيث إنّها تدفع إلى العمل عددا من أعضاء الجسم الإنساني، وهي فعل نفساني من حيث إنها تستلزم نشاطا إراديا للعقل، وهي فعل اجتماعي من حيث إنها استجابة لحاجة الاتّصال بين بني الإنسان، ثم هي في النهاية حقيقة تاريخية لا مراء فيها نعثر عليها في صور متباينة وفي عصور بعيدة الاختلاف، على سطح المعمورة قاطبة". (فندريس، 1950، صفحة 24)

أهمية الموضوع وهدفيّته:

لماذا نبحث في اللغة ؟ نبحث في اللغة لأن اللغة هي مفتاح العلم وملكة الإنسان، وكما يقول كلود ليفي ستراوس العالم الأنثروبولوجي الفرنسي:"بحثنا عن الإنسان فلم نجده، ووجدنا بقاياه، وهي النصوص"، وإنّ كل الفتوح العلمية مرّت عبر جسر اللغة. وإنّما يعرف مفهوم اللغة من عرف مفهوم الإنسان في منظومة الحياة، فـــــ:"خطر اللغة في حياة الفرد لا يقل عن خطرها في حياة المجتمع، إذ هي الأداة الوحيدة التي تمكّن الفرد من الدخول في نطاق المجتمع الذي يعيش فيه. ولولا اللغة لظلّ الفرد حبيس العزلة الاجتماعية، غير عالم بكل ما يجري ما حوله". (حسان، 2000، صفحة 14) غير متّصل بواقعه فكرا ولا وجدانا، ومن هنا يفقد معناه ويهدّم مبناها فـــ:"لولا البيان، لخُرّب هذا البنيان".(شاكر، /، صفحة 1165)

انظر وتأمّل في كلّ مناحي هذا الوجود فـــ:"أينما يكن مسلكك في دنيا المعرفة، فابحث عن اللغة: قمّة العلوم الإنسانية، ورفيقة العلوم الطبيعية، وركيزة الفلسفة عبر القرون، ورابطة عقد الفنون، ومحور تكنولوجيا المعلومات؛ وهندسة معرفتها ولغات برمجتها". (نبيل، 2001، صفحة 244)

ما الذي يحدث عندما تنبثق فكرة من الأفكار في خاطر الإنسان فيريد نقلها إلى أخيه الإنسان ؟ إنّ اللغة في المطلق الفكري وجود غير متجسّد، شيء مائع رجراج تستحيل الإحاطة به، وهنا يحدث ارتباط معجزة بين العقل والأعصاب الجسمانية للإنسان، فيبدأ عملية ترجمة: من المطلق الصامت إلى المحدد الصائت، يخرج الهواء من صدره، فتتحرك أجهزة موسيقية، بعضها في حنجرته،

وبعضها الآخر في حلقه وفمه وأنفه، وإذا بالفكرة تلبس رموزا مسموعة بالأذن، وتصبح بهذا الشكل كلاما. (ظاظا، 1990، صفحة 2)، لفظيا مسموعا مفهوما له وظيفة اجتماعية ما حسب المقام، وهذه الوظيفة تحدث تواصلا إنسانيا تفاعليّا في غاية التبليغية والتفاهم بين المرسل والمرسل إليه.

إذن؛ فاللغة نظام صوتيّ عجيب يصدره الإنسان فيعيش به ويصنع به نظاما في الحياة، فإنها تبدو مهمة إلى درجة أنّ اللغة "للفكر كالأرقام للحساب، لا يمكن تصوّر عملية حسابية بدون أرقام، مع أن الحساب، من حيث هو عملية عقلية شيء، والأرقام شيء آخر، كذلك لا يمكن تصور فكرة بدون ألفاظ". (ظاظا، 1990، صفحة 79) فالمفردات قوالب هي من تكسو الفكر؛ ويصبح هناك اتّصالا بين الدال والمدلول، وبهذا الاتصال يصبح للغة وظائف لسانية ووظائف اجتماعية تواصلية كالوظيفية الاستكشافية: Heuristic function للغة مثلا، التي تستخدم في الاستدلال والتوجيه.

- **اللغة دليل حقيقيّ للإنسان :**

لو حللنا الوظيفية الاستكشافية للغة، لوجدناها أنها كانت حاضرة في منطق العرب؛ فالعربي قديما كان يعيش باللغة كمنهج يستضيء بها في معاملاته ويستنير به في موجوداته، ومن طريف ما روته لنا كتب التراجم والسير والمعاجم؛

وفدَ قَومٌ من الْيمن على النّبيّ صلى الله عَلَيْهِ وسلم فقالوا: يَا رَسُول الله، أَحْيانا اللَّهُ ببيتين من شعر امرىء الْقَيْس بن حُجْر. قَالَ: وَكَيف ذلك قَالُوا: أَقْبَلْنَا نُريدك، فَضَلَلنا الطّريقَ فبقينَا ثَلاثاً بِغَيْر ماءٍ، فاستظْلَلْنَا بالطَّلْح والسَّمُر. فأَقْبَل راكبٌ مُتلثِّمٌ بعمامةٍ، وتَمثَّلَ رَجُلٌ ببيتين، وهما:(*1)

ولــمّا رَأَتْ أنّ الشّــــريعَـــــــــــــــــــــــــةَ وِرْدُها *** وأَنَّ البَـــــــــــــــــــــــــيَاضَ من

فَـــــــــــرائـــــــــــصِها دامـــــــــــــــي

تَيَمَّمتِ العَينَ التي جَنبَ ضارِجٍ *** يُفيءُ عليها الظِلُّ عرْمَضُها الطامي

فَقَالَ الرَّاكِب: مَن يَقُول هاذا الشِّعرَ؟ قَالَ: امرُؤُ الْقَيْس بن حُجْرٍ. قَالَ: وَاللهِ، مَا كَذَبَ، هذا ضارجٌ عنْدكُمْ. قَالَ: فَجَثَوْنا على الرُّكَب إلى ماءٍ، كَمَا ذَكَر، وَعَلَيهِ العَرْمَضُ يَفيءُ عَلَيْهِ الظِّلْحُ، فشربْنا رِيَّنَا، وحَمَلْنَا مَا يَكْفينَا ويُبلِّغُنَا الطَّريقَ. (الزبيدي، /، صفحة 81) إذًا؛ فلولا الوظيفة الاستكشافية للغة، التي دلّت هذا الوفد على منبع الماء، لهلكوا عشطا في حرّ الصحراء.

- **اللغة جزء من العقل الجماعي Conscience Collective :**

يقول مصطفى صادق الرافعي:"إذا كان من أصول الحياة: الاجتماع، فمن أصول الاجتماع: اللغة". (الرافعي، د، ت، صفحة 41) فهي نسق فكري مترابط وجزء من العقل الجماعي Conscience Collective الاجتماعي المترابط عقيدًة وثقافةً ووجدانًا، ولهذا كانت اللغة ظاهرة اجتماعية عرفية تواضعية رمزية، تحكمها نظم لسانية انتظامية، وتتمثل في: (المعتوق، 1996، صفحة 30)

1- **النسق الصوتي**: وهو الذي يحدد نطق الكلمات أو أجزاء الكلمات وفق الأنماط المقبولة أو المتعارف عليها لدى الجماعة اللغوية.

2- **النسق الصرفي**: وهو النسق الذي تعالج فيه أو من خلاله بنيات الكلمات وأنواعها وتعارفيها واشتقاقاتها.

3- **النسق الإعرابي أو النحوي**: ويعني ترتيب كلمات الجملة أو الجمل في أشكالها المقررة في اللغة.

4- **النسق المعجمي**: ويقصد به مجموع المفردات اللغوية المتاحة للتعبير عن المعاني والمواقف المختلفة في إطار اللغة.

5- **النسق الدلالي**: وهو يعني ترتيب الوحدات اللغوية من الناحية المعنوية، وفق سماتها الدلالية المعروفة أو المقبولة في اللغة.

فاللغة إذا متعددة الأنظمة، فلها نظامها الأصواتي الموزع توزيعا لا يتعارض فيه صوت مع صوت، ولها نظامها التشكيلي، الذي لا يتعارض فيه موقع مع موقع. ولها نظامها الصرفي الذي لا تتعارض فيه صيغة مع صيغة، ولها نظامها النحوي الذي لا يتعارض فيه باب مع باب، ولها بعد ذلك نظام للمقاطع، ونظام للنبر ونظام للتنغيم فهي "منظمة من النظم"، ويؤدي كل نظام منها، وظيفته بالتعاون مع النظم الأخرى. (تمام، د، ت، صفحة 58)

كالوظيفة التنظيمية Regulatory function، أو الوظيفة التفاعلية Interactional function، أو الوظيفة الاستكشافية Heuristic function، أو الوظيفة البيانية Representational function....الخ.

- **اللغة كـــ:بناء لساني (تحليل كلمتي: المحبّة"، و"الروح"):**

لو درسنا النسق الدلالي في بنية اللغة العربية، لوجدناها تتميز بتكثيف المعاني في المباني، فلو نأخذ مثلا كلمة "المحبّة"، فإنها لا تحد بحد أوضح منها بحيث يرى ابن قيم الجوزية (ت:751هـــ)، أن الحدود لا تزيدها إلا خفاء وجفاء، فحدها وجودها، ولا توصف المحبة بوصف أظهر من المحبة، وهذه المادة تدور في اللغة على خمسة أشياء: (الجوزية، 1996، صفحة 11)

- **أحدها: الصَّفَاءُ وَالْبَيَاضُ**، ومنهم قولهم لصفاء بياض الأسنان حَبَبُ الأسنان ؛
- **والثاني: الْعُلُوُّ وَالظُّهُورُ**، ومنه حَبَبُ الْمَاءِ وَحُبَابُهُ وهو ما يعلوه عند المطر الشديد ؛
- **والثالث: اللُّزُومُ وَالثَّبَاتُ**، ومنه: حَبَّ الْبَعِيرُ وَأَحَبَّ، إذا برك و لم يقم ؛
- **والرابع:اللُّبُّ**، ومنه: حَبَّةُ الْقَلْبِ، لِلُبِّهِ وَدَاخِلِهِ، وَمِنْهُ الْحَبَّةُ لِوَاحِدَةِ الْحُبُوبِ، إذ هي أصل الشيء ومادته ؛
- **والخامس: الحفظ والإمساك**، وَمِنْهُ حِبُّ الْمَاءِ للوعاء الذي يحفظ فيه ويمسكه وفيه معنى الثبوت أيضا.

إنّ هذه المعاني الخمسة من لوازم المحبة، فإنها صفاء المودة، وهيجان إرادات القلب للمحبوب، وعلوها وظهورها منه لتعلقها بالمحبوب المراد، وثبوت إرادة القلب للمحبوب، ولزومها لزوما لا تفارقه، ولإعطاء المحب محبوبه لبه، وأشرف ما عنده وهو قلبه، ولاجتماع عزماته وإراداته وهمومه على محبوبه، فاجتمعت فيها المعاني الخمسة. (الجوزية، 1996، صفحة 12)

ولقد وضعوا لمعناها حرفين مناسبين للمسمى غاية المناسبة "الحاء" التي هي من أقصى الحلق، و"الباء" الشفوية التي هي نهايته، فللحاء الابتداء، وللباء الانتهاء، وهذا شأن المحبة وتعلقها بالمحبوب، فإن ابتداءها منه وانتهاءها إليه، وقالوا في فعلها: حبه وأحبه، ثم

اقتصروا على اسم الفاعل من أحب فقالوا: مُحِبٌّ، وَلَمْ يَقُولُوا: حَابٌّ، واقتصروا على اسم المفعول من حَبَّ، فَقَالُوا: مَحْبُوبٌ، و لم يقولوا: مُحَبٌّ إِلَّا قَلِيلًا، وأعطوا الْحُبَّ حركة الضم التي هي أشد الحركات وأقواها، مطابقة لشدة حركة مسماه وقوتها. وأعطوا الْحِبَّ وهو المحبوب: حركة الكسر لخفتها عن الضمة، وخفة المحبوب، وخفة ذكره على قلوبهم وألسنتهم: من إعطائه حكم نظائره، كَنِهْبٍ بمعنى منهوب، و وَذِبْحٍ بمعنى مذبوح، وحِمْلٍ للمحمول، بخلاف الحمل – الذي هو مصدر – لخفته، ثم ألحقوا به حملا لا يشق على حامله حمله، كحمل الشجرة والولد. (الجوزية، 1996، صفحة 13) لأنها لغة إعرابية، واشتقاقية بامتياز؛ محكمة المباني عميقة المعاني. فخاصية الإعراب هي التي أحدثت كلّ هذه المعاني، فالإعراب هو "المجسّم الفعلي لانبثاق المعنى". (المسدي، 2010، صفحة 50)

والأمثلة في هذا الباب أكثر من تحصر، فمثلا كلمة "**الروح**": فأصلها من نفس أصل لفظ الريح، وهو الهواء، ثم النفس الذي يردده الإنسان في صدره شهيقا وزفيرا. وقد سمي كل ما تحمله الريح ويمكن أن يشمه الإنسان عند التنفس رائحة، وسميت الراحة كذلك لأن المتعب، أو المهموم المكروب، تضيق أنفاسه، فإذا استطاع أن يستنشق الهواء وأن يتنفس الصعداء، صعد الهم مع هذا التنفس من صدره، فأحسّ بالراحة، وهكذا يكون قد استراح، ولما كانت الريح لا تلاحظ في هبوبها بقدر ما تلاحظ بوضوح في الأماكن الشاسعة المنبسطة سمي كل شيء واسع فيما بعد أَرْوَح، وسميت راحة اليد لاتساعها وانبساطها. ولما كان تردد الريح في صدر الإنسان هو أوضح العلامات على أنه حي لم يمت، اشتق من ذلك لفظ الروح بمعنى سر الحياة المجرد المبهم في الكائن الحي، (ظاظا، 1990، صفحة 84، 85) ولاشتقاق الروح من الريح جاء لفظها في القرآن الكريم مستعملا مع الفعل نفخ في قوله تعالى:"**فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا**"، (التحريم:12).

- **اللغة نسق وجداني (صلة اللفظ بمدلوله):**

إنّ العلاقة بين الدال والمدلول ليست دائما علاقة اعتباطية، فللعربية خصوصية، فهي حين تطلق اسما على معنى فهي تراعي علاقته بالطبيعة والمنطق والوضع، ولا مكان للإعتباطيّة، فهي كثيرا ما تراعي العلاقة الصوتية بالعلاقة الدلالية لكيما يتطابق الصوت مع مضمونه. (مرتاض، 2012، صفحة 94)

إنّ كلمة حبّ مثلا، تتركب من حاء وباء مكرّرة مُثلت في شدّها للتخلّص من التكرار من جهة، وللدلالة على قوّة معنى هذا اللفظ بالاتحاد إلى الشدّ الذي هو قوة صوتيّة هائلة في المنطق العربي، ونلاحظ أنّ "الحاء" حرف حلقيّ، وهو صوت دالّ على التلذذ، وقد يدلّ على التوجّع أيضا، والحبّ له شأنان اثنان: فإما سعادة وارتياح فيه، فتكون الحاء للإلتذاذ والاستمتاع. وإمّا شقاء ومكابدة فيه، فتكون الحاء للدلالة على الحرقة والتوجّع والاكتواء، فالحاء تتخذ دلالة مزدوجة بحيث تتكيف مع الأطوار التي تساور مصطنعها في الكلام. (مرتاض، 2012، صفحة 95)

وأما دلالة الباء المضعفة التي جاءت بعد "الحاء" في لفظة الحب، فكأنها كانت من أجل تلطيف صوت "الحاء" الصادر من الحلق والخروج بها إلى الشفتين ليتعانق العمق مع السطح من وجه، ولتمنح "الحاء" القوية الدلالة رطوبة تلطّف من شدتها فتكمل معنى "الحاء" باتخاذ "الباء" بحكم شفويتها معنى التقبيل والتلطيف، فكأنّ الحب حرقة تقبّلها الشفتان بهذه "الباء"، بل

بهاتين "البائين"، إذ أصل النطق قبل استحالته إلى التضعيف:"حُبْبٌ"، فكأنّ تقبيل المعنى يحدث مرّتين بحركة الشفتين اللتين تنفتحان ثم تنطبقان على المعنى في حميمية عجيبة، ثم وقع اختصار ذلك في صوت واحد ولكنه قُوّي بهذا الشدّ الذي تنطبق به الشفتان في شدّة صوتية مدهشة، ليدلّ على صور المعنى من أعماق القلب، وأغوار النفس. إنّ الباء المشددة في لفظ "الحبّ" إنّما جاءت لتضمّ معنى لذّة هذا الحبّ، أو حرقته. (مرتاض، 2012، صفحة 96)

إنّ كل صوت في تركيب الألفاظ العربية يؤدي وظيفة دلالية تعوّم في المنظومة الصوتية العامّة للحروف المركّب منها اللفظ. فالكلمات العربية قلّ أن يجتمع فيها حرفان متقاربا المخرجين لتلطيف النطق للمتكلّم، وتلطيف التلقّي للمستمع، فإذا كان الهوى يتكوّن من مقطعين: متحرّك، وممدود، فهو يتكوّن، نتيجة لذلك، من:"**هـــــــ**"، ومن "**وى**"، ونحن نتحسّس المعنى في هذا الفعل، من حيث دلالته الصوتية المتصاقبة مع دلالته العميقة، أنّ الهاء، أو "هِهْ"، كأنّها تنبيه حُذفت منها أف الإشباع، أو الهمز كما شئت، كما حذفت من"ها+ذا"، فصارت "هذا". (مرتاض، 2012، صفحة 97)

ثم استغني عن المدّ حين لم يعد الحاجة إليه قائمة لكثرة الاستعمال من جهة، ثم إنّ هذه الهاء وظّفت، في دلالة الصوت على المعنى، لأنها حرف حلق يخرج من أعلى الصدر، فيكون جهد النطق والتخريج دليلا على حرقة العاطفة والتعاجها من جهة ثانية، ثم وقع استكراه وجود حرفي حلقٍ متوالين (الهاء، والهمز)، فوقع تهذيب الصوت بحذف الحرف الثاني لعدم أهميته، وقد اتخذت الهاء فيه مكانتها المكينة من وجهة أخرى. ثم أدمج صوت الهاء في "وى" التي هي في أصلها للندبة والتوجّع حيث يكون، حين تأتي في صدر الكلمة، وأُخّرت هنا، لأنّ هاء التنبيه أبدا تتصدّر حروف الألفاظ، فيكون المعنى، كما نتحسسه نحن في الأصل هو:ها+وا! أي:ها أتوجّع (والمسكوت عنه: من هذا الحبّ)، أو ها أتلذّذ، أو ها أستمتع بها (والمسكوت عنه: بهذا الحبّ). (مرتاض، 2012، صفحة 97)

إذن؛ فالعربية تعتبر أحكم اللغات نظامًا في أوضاع المعاني، وسياستها بالألفاظ، وهي من هذا القبيل أعظمها ثروة وأبلغها من حقيقة التمدن بحيث لا تدانيها في ذلك لغة أخرى كائنة ما كانت، فالعرب لم يدعوا معنى من المعاني الطبيعية التي تتعلق بالحياة الروحية أو البدنية مما تهيأ لهم إلا رتبوا أجزاءه وأبانوا عن صفاته بألفاظ متباينة تعين تلك الأجزاء والصفات على مقاديرها؛ فأول معاني الحياة الروحية الحب، وهذه مراتبه عندهم: الهوى، ثم العلاقة، وهي الحب اللازم للقلب؛ ثم الكَلَف، وهو شدة الحب؛ ثم العشق، وهو اسم لما فضل عن المقدار الذي اسمه الحب؛ ثم الشعف، وهو إحراق الحب للقلب مع لذة يجدها، وكذلك اللوعة واللاعج، فإن تلك حرقة الهوى وهذا هو الهوى المحرق؛ ثم الشغف، وهو أن يبلغ الحب شغاف القلب وهي جلدة دونه، ثم الجوى، وهو الهوى الباطن؛ ثم التيم، وهو أن يستعبده الحب؛ ثم التبل، وهو أن يسقمه الهوى؛ ثم التدليه، وهو ذهاب العقل من الهوى؛ ثم الهيوم، وهو أن يذهب على وجهه لا يستقر. (الرافعي، د، ت، صفحة 148) فلا مكان للاعتباطية والجزافية والعشوائية في نسق كلمات اللغة العربية.

لقد تفوّقت اللغة العربية في التمثيل اللساني للجانب الوجداني رغم غموضه وكهنوته، و نستطيع أن نقول أنّ اللغة نظام تواصليّ وجدانيّ، بل هي"متحّدة اتحادا عينيّا بالوجدان؛ لذا كانت اللغة إلى الإيجاز أو الإطناب، أو إلى اللين والشدة، إلى الارتفاع أو بعد المدى، بمقدار ما تستلزمه الدلالات في الوجدان، وكانت الدلالات الوجدانية تنطبع لغةً بمناسبة طبيعية في الشدة أو الرخاوة، في الهمس أو الجهر، مما يجعل الوجدان غير قادر على أن يتصرف بالحروف، والكلمات، كما يشاء هو، بل كما يفرضه الوجه الذي في

الحروف، لم يأت محتما إلا لأنه يحمل فيه بلاغة الوجدان ذاتها، فدلالة الوجدان طبيعية في دلالة اللغة... وعلى مقدار ما يكون في الوجدان من دلالة ينجذب ضرورة إلى أن يصبح لغة". (ظاظا، 1990، صفحة 79)

عموم؛ إنّ العربية قد تعرفُ عن العربيّ أكثر مما يعرفه العربيّ عن نفسه، وأحيانا قد تفضح ما يحاول إخفاءه، ونحن البشر لسنا مجرد كائنات بيولوجية فقط؛ فلدينا هوية ثقافية واجتماعية، ولغتنا هي من بين أهم ما يكشف عن هويتنا حيث المعنى اللغوي المتجذّر في التجربة الحسية، فاللغة فهي تعكس تجربتنا الحسية الشاملة كبشر؛ كما أن المعنى اللغوي ليس منفصلا عن غيره من أشكال المعرفة. (التميمي، 2014)بحيث أنّ هناك حتمية لغوية Linguistic determinism، أي أنّ اللغة وبنيتها تحتّم بعض أوجه المعرفة دون أخرى، فتكون حدود اللغة وحدود التعبير بها هي حدود العالم في نظر المتكلم لهذه اللغة.

وبمعنى مباشر؛ إنّ الكلمات أفكار، وأننا لا نستطيع أن نفكر بلا كلمات أو ما يقوم مقامها من إيماءات باليد، أو بالعين، أو نحو ذلك، وهناك حقيقتان سيكولوجيتان: (موسى، د، ت، صفحة 55)

- الأولى هي قوة الكلمة المتكررة في الإيحاء؛ فإننا نستطيع أن نُحْدِثَ إيحاءً لشخص آخر أو لأنفسنا؛ بكلمة مُكررة تحمل معنى أو توجيهًا، وهذا هو التَّنْوِيْمُ النفسي الذي يَحْمِلُ النائم على أن يسلك سلوكًا معينًا، فإذا تكررت كلمات الدم، والثأر، والانتقام؛ أحدثت الإيحاء ثم الإجرام، ومعظم سلوكنا، بل ربما كله يعود إلى الكلمات التي تَعَوَدْنَا منذ الطفولة؛
- والحقيقة الثانية :أن الكلمة المُنِيْرة؛ أي :التي تنير العقل بالمنطق، أو القلب بالبر، والشرف، والمروءة، هذه الكلمة تمسح عن العقل النائم المضطرب غَشَاوَةً ولذلك نحن نطلب من المريض أن يشرح بالكلمات تاريخ مرضه، ويحاول تعليله وكثيرًا ما يُشْفَى بِمَحْضِ القوة المُنِيرة الإنسانية التي في الكلمات التي يستعملها؛ لأنه باستعمالها قد حدد مرضه، وعين أَمَاراته، وأسبابه.
- **عبقرية الحجاب اللغوي (مثال من الحديث النبوي الشريف):**

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأسامة بن زيد، وقد كساه قُبطية فكساها امرأته:"أَخَافُ أَنْ تَصِفَ حَجْمَ عِظَامِهَا".(*2)

قال الشريف الرضي في شرح هذا الحديث:"وهذه استعارة، والمراد أن القبطية برقتها تلصق بالجسم، فتبين حجم الثديين، والرادفتين، وما يشتد من لحم العضدين والفخذين، فيعرف الناظر إليها مقادير هذه الأعضاء، حتى تكون كالظاهرة للحظه، والممكنة للمسه، فجعلها عليه الصلاة والسلام، لهذه المحال كالواصفة لما خلفها، والمخبرة عما استتر بها؛ وهذه من أحسن العبارات عن هذا المعنى، ولهذا الغرض رمى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، في قوله:"إياكم ولبس القُباطيّ؛ فإنها إلا تشف تصف"، فكان رسول الله – صلى الله عليه وسلم– أبا عُذرةِ هذا المعنى، ومَن تبعه فإنما سلك نهجه، وطلع فجه". (الرضي، د، ت، صفحة 166)

قلنا: وهذا كلام حسن، ولكنَّ في عبارة الحديث سرًا هو من معجزات البلاغة النبوية لم يهتدِ إليه الشريف، على أنه هو حقيقة الفن في هذه الكلمة بخاصتها، ولا نظن أن بليغًا من بلغاء العالم يتأتى لمثله، فإنه (عليه الصلاة والسلام) لم يقل: أخاف أن تصف حجم أعضائها، بل قال:"حجم عظامها"، مع أن المراد لحم الأعضاء في حجمه وتكوينه، وذلك منتهى السمو بالأدب، إذ ذكر "أعضاء" المرأة في هذا السياق، وبهذا المعرض، هو في الأدب الكامل أشبه بالرفث، ولفظة (الأعضاء) تحت الثوب الرقيق الأبيض تنبه إلى صور ذهنية كثيرة هي التي عدها الرضي في شرحه، وهي تومئ إلى صورة أخرى من ورائها، فتتره النبي –صلى الله عليه وسلم– عن كل ذلك، وضرب الحجاب اللغوي على هذه المعاني السافرة، وجاء بكلمة "العظام"؛ لأنها اللفظة الطبيعية المبرأة من كل نزغة، لا تقبل أن تلتوي، ولا تثير معنى، ولا تحمل غرضًا؛ إذ تكون في الحي والميت، بل هي بهذا أخص؛ وفي الجميل والقبيح، بل هي هنا أليق؛ وفي الشباب والهَرَم، بل هي في هذا أوضح، والأعضاء لا تقوم إلا بالعظام، فالمجاز على ما ترى، والحقيقة هي ما علمت. (الرافعي، السمو الروحي الأعظم والجمال الفني في البلاغة النبوية، د، ت، الصفحات 65-68)

وهذا توصيف منه دقيق وصحيح، فالسياق الثقافي له دور مهمّ جدّا في تعبئة الكلمات وشحنها، لأنّ اللغة هي بنت السياق الإجتماعي هو الذي يحمّل كلماتها مختلف المعاني والعواطف والإنفعالات.

ولهذا كانت الفصاحة قيمة تعبيرية من قيم التواصل بين البشر بعامة، وبين العرب بخاصة، بحيث يصطنع المتكلم لغة صحيحة ومعبرة معجميا، وآسرة مدهشة بلاغيا، وقيمة البيان تولّدت من المتلازمين البلاغيين: الفصاحة والبلاغة؛ فالبلاغة هي القدرة المدهشة على التبليغ بأدقّ تعبير وأوجزه وأجمله عن فكرة معينةّ، مع اصطناع ألفاظ سليمة وفصيحة لذلك،. (مرتاض، 2012، صفحة 312)أو كما يرى ابن خلدون

(خلدون، 1988، صفحة 776) استعمال الألفاظ بأعيانها دالّة على المعاني بأعيانها.

فخطر اللغة ليس كـــــ:بنية لسانية مستقلة عن ناطقها، وإنما خطر اللغة يكمن في حمولتها الفكرية والثقافية والدينية، فهي ذات أسرار في "أساليبها الظاهرة والباطنة، وعجائب تصاريفها التي تجمعت وتشابكت على مرّ القرون البعيدة، فصارت ألفاظها وتراكيبها الموروثة والمستحدثة تحمل من كل زمان مضى وكلّ جيل سبق، نفحةً من نفحات البيان الإنساني بخصائصه المعقّدة والمكتمة، أو خصائصه السمحة والمستعلنة. وبين تمام الإحاطة باللغة وقصور الإحاطة بها، مزالق تزلّ عليها الأقدام". (شاكر، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، 2006، صفحة 27)

فالعلاقة التفاعلية التمازجية التراسلية بين الأنساق اللغوية مع سائر سلوكات الفرد وحركة المجتمع معقدة ومركبة جدا لا تنفصم Inextricablement.

نتائج البحث:

- تتألف اللغة من نظام صوتي يقوم به جهاز النطق، ونظام صرفي الذي يهتم بالصيغ والأبنية، ونظام نحوي الذي يهتم بالجمل والتراكيب، ونظام معجمي الذي يقوم بتركيب المعاني على المباني.
- اللغة وعاء الفكر، ووسيلة التواصل، وتوصيل للأفكار والانفعالات، وهي تمارس سيطرة غير شعورية على ذهنية المتكلم.

- اللغة منهج تفكير مغروزة في طبع الإنسان مثل السمع والبصر، وباب البحث فيها يبقى مفتوحا، ولا أحد يستطيع أن يمتلك عين الحقيقة حول أسرار الخليقة في قضية ماهية نشاط اللغة عند الإنسان.
- اللغة ملكة إعجازية في صميم طبيعة الإنسان، وهي ليست مفصلة على بنيوية دي سوسير، أو توليدية تشومسكي.
- اللغة عملية توليدية فعّالة في الذهن البشري قادرة على الخلق والإبداع من خلال قانون نحوي عام مصمم في الطبيعة البشرية.
- اللغة العربية منطق العرب فمن فسدت لغته فسد منطقه، وكلّما كانت "الألفاظ بأعيانها دالّة على المعاني بأعيانها"، كما يرى ابن خلدون، أدّت اللغة وظائفها الاجتماعية على أكمل وجه.
- ممارسة اللغة بالسماع والتحدث والكتابة مهمّ جدا، لصناعة المنوال اللغوي في الأذن التي تسمع، والعقل الذي يفكّر، وفي اليد التي تكتب، كل ذلك في خدمة تنمية الملكة اللغوية، فالخيال العلمي مرهون بالمنوال اللغوي.
- من خصائص عربية الحديث النبوي الغنى في الأفكار، والعمق في المعاني، وقمّة الإحكام في عرض الأحكام؛ بكل دقّة وسموّ، وشمول.
- لا يتوازن الإنسان مع غيره إلا إذا توازن مع ذاته ولا يتوازن ذاته إلا إذا توازن مع لغته. لأنّ من حقائق اللغة أنها على صلة وثيقة بالحياة النفسية للإنسان، بل هي ظاهرة سيكولوجية غير مستقلة عن بني الإنسان، فمن انحلت لغته انحلت نفسه.
- اللغة صفة كمال للإنسان، فمن فقد لغته فقد هداه، لأنها سر الكيان ومستودع القيم والوجدان، وديوان ثقافة والعرفان، واستقرار العقل وسكينة الروح .

- **هوامش البحث:**

- (*1) الشريعة: مورد الماء، وهمها: طلبها، والضمير في رأت للحمر؛ يريد أن الحمر لما أرادت شريعة الماء وخافت على أنفسها من الرماة، وأن تدمى فرائصها من سهامهم (الفريصة:اللحم الذي بين الكتف والصدر)، عدلت إلى ضارج لعدم الرماة على العين التي فيه، وضارج: موضع في بلاد بني عبس، والعرمض: الطحلب والطحلب:خضرة تعلو الماء المزمن، وطامي: مرتفع.
- (*2) حديث حسن: أخرجه الإمام أحمد في مسنده، ، عن محمد بن أسامة بن زيد، أن أباه أسامة رضي الله عنه قال: كساني رسول الله –صلى الله عليه وسلم – قبطية كثيفة كانت مما أهداها دحية الكلبي (رضي الله عنه)، فكسوتها امرأتي، فقال لي رسول الله – صلى الله عليه وسلم –:"ما لك لم تلبس القبطية؟" قلت: يا رسول الله! كسوتها امرأتي. فقال لي رسول الله – صلى الله عليه وسلم –:"مرها فلتجعل تحتها غلالة؛ إني أخاف أن تصف حجم عظامها". الغِلالة: شعار يلبس تحت الدثار.

- **مراجع البحث:**

ابن القيم الجوزية. (1996). *مدارج السالكين بين إياك نعبد وإياك نستعين*. بيروت: دار الكتاب العربي.

ابن خلدون. (1988). *مقدمة*. بيروت: دار الفكر.

أحمد المعتوق. (1996). *الحصيلة اللغوية*. الكويت: عالم المعرفة.

الشريف الرضي. (د، ت). *المجازات النبوية*. مصر: منشورات مكتبة بصيرتي.

المرتضى الزبيدي. (/). *تاج العروس من جواهر القاموس*. الكويت: دار الهداية.

تمام حسان. (2000). *اللغة العربية بين المعيارية والوصفية*. القاهرة: عالم الكتب.

جنان التميمي. (الثلاثاء يونيو, 2014). *https://www.alriyadh.com/944886*. تم الاسترداد من اللغة العربية تعرف عن العربي أكثر مما يعرفه عن نفسه!

جوزيف فندريس. (1950). *اللغة*. القاهرة: لجنة البيان العربي.

حسان تمام. (د، ت). *مناهج البحث اللغوي*. القاهرة: مكتبة الأنجلو مصرية.

حسن ظاظا. (1990). *اللسان والإنسان*. دمشق: دار القلم.

سلامة موسى. (د، ت). *البلاغة العصرية واللغة العربية*. مصر: كلمات عربية للنشر والتوزيع.

عبد السلام المسدي. (2010). *العربية والإعراب*. بيروت: دار الكتاب الجديدة المتحدة.

عبد المالك مرتاض. (2012). *نظرية اللغة العربية* . الجزائر: دار البصائر.

علي نبيل. (2001). *الثقافة العربية وعصر المعلومات*. الكويت: عالم المعرفة.

لوسيركل جاك. (2005). *عنف اللغة*. بيروت: الدار العربية للعلوم.

محمود شاكر. (/). *جمهرة مقالات الأستاذ محمود شاكر*. القاهرة: مكتبة الخانجي.

محمود شاكر. (2006). *رسالة في الطريق إلى ثقافتنا*. القاهرة: مكتبة الخانجي.

مصطفى صادق الرافعي. (د، ت). *السمو الروحي الأعظم والجمال الفني في البلاغة النبوية*. مصر: دار البشير للثقافة والعلوم.

مصطفى صادق الرافعي. (د، ت). *تاريخ آداب العرب*. لبنان: دار الكتاب العربي.